حتى لا تعود الجماهير أنابيب اختبار

وقف الشحن.. وإلى الحوار (*)

الدكتور العميد(م) علي عواد

صحيفة السفير عدد رقم 10635 تاريخ
26 شباط 2007

(*) مقال بحثي نشر في صحيفة السفير عدد رقم 10635 تاريخ 26 شباط 2007

حتى لا تعود الجماهير أنابيب اختبار

وقف الشحن.. وإلى الحوار

مدخل

المكان: لبنان.

الزمان: نيسان 1975.

المناسبة: اجتماع مسؤولي تنظيم سياسي ـ عسكري.

انعقدت الجلسة. كلٌّ أدلى برأيه. أحدهم أوضح ملابسات الحادث في أحد أزقَّة منطقته. آخر, قال: إذا دعوتُ المواطن للقتال والدفاع عن وطنه لبنان قد أستثير حماسته قليلاً, ولكنني إذا دعوته للقتال والدفاع عن دينه وطائفته ومذهبه وشرفه وعرضه كي يحفظ رأسه فذلك يثيره أكثر فيستميت في القتال. القول حق, لكن الهدف باطل يوحي باندلاع فتنة صعبة الإخماد.

في كل مجتمع, لكل أزمة توصيفات سياسية وأبعاد اجتماعية ـ نفسانية مرتبطة بالأعماق الدفينة للجماهير المكونة لمجمل الشعب, سنحاول مقاربتها كواقع تجريبي عاشته تلك الجماهير خلال الأزمات اللبنانية, وصولاً إلى أزمة مطلع 2007.

فالحركات الجماهيرية أو الحركية الشعبية التي تعبِّر عن نفسها بفعل الانتخاب, والتظاهر, الانتفاضة والثورة... الخ. ليست هي النتيجة المباشرة لتفكير مدرك بالضرورة أو سلوكية واعية للفرد الذي هو العنصر الأساس للكتلة الجماهيرية. فإلى جانب كون هذه الحركية نتاج التفكير المدرك والسلوك الواعي لبعض النخبة من الجمهور, فقد تكون فعلاً وردّة فعل بأسلوب عصبي وفيزيائي ظاهري لمجموع الأفراد والعناصر المكونة لهذه الكتلة. ويتخذ هذا الأسلوب صفة الدفع أو الشحن أو الصدام ويعبر عن ذاته بطاقات وقدرات وأفكار وممارسات وأفعال وردات أفعال تندس في الجمهور.

سلوك الجمهور:

لقد أثبت علم نفس الجماهير, ثم أتت تجربة الحرب في لبنان وبعض المناطق الساخنة في العالم لتؤكد أنه كما للفرد نزقه, كذلك للجمهور نزقه.

فالجمهور هو لعبة كل التأثيرات الخارجية وصداها. وهو يعكسها بتغييرات مستمرة في الآراء والسلوك. فعوامل التحريض والدفع والإغراء والإرغام تكون في أغلب الأحيان ـ وخاصة في المجتمعات النامية ـ ملحة وحاسمة لدرجة أن مصلحة الأفراد ضمن هذا الجمهور تنتفي وتزول, ذلك هو النزق المتعارف عليه. وبعد مراجعة لأعداد الصحف اللبنانية والعربية الصادرة خلال حرب لبنان, وخصوصاً حرب السنتين (1975 ـ 1976), تبين أن أغلبها تضمن تصريحاً أو تعليقاً أو مقالاً تساءل صاحبه فيه: أين مصلحة اللبناني في كل ما يجري؟.

في مقابلة أجرتها صحيفة (السياسة الكويتية) مع الرئيس الراحل أنور السادات في 1976/1/7 قال: أنا مش قادر أعرف كيف يحدث اللّي يحدث في لبنان ده, البعض يقول إنها جزء من السياسة الداخلية اللبنانية يستغل من بعض الأطراف لأهداف أخرى, والبعض يقول لا! فيه تدخل خارجي, وقطعاً فيه تدخل خارجي[1].

من خلال مراقبة معمقة لما يجري داخل أية مظاهرة, انتفاضة, ثورة, أو أي مظهر جماهيري آخر ذي طابع عنفي, يمكن الملاحظة بوضوح أن السلوكية المتبعة ليست متعمدة أو مهيأة من قبل أغلبية أفراد الجمهور المشارك. ولكن, يتم إثارة العنف بتحريض نفساني وفيزيائي يستتبع استدعاء لا إرادياً لسلوكية محددة يريدها المحرض ويخطط لها: سلوكية فجائية جارفة يغيب عنها غالباً التوازن والتعقل لدرجة انتفاء المصلحة العامة الحقيقية للجمهور.

مثلاً: أين كانت فائدة اللبنانيين على اختلاف طوائفهم في عمليات الفرز الديموغرافي والتهجير المتبادل تبعاً للانتماء الطائفي والمذهبي خلال حرب السنتين 75 ـ 76؟ أين كانت فائدتهم من الخطف والعنف والقتال وضرب الاقتصاد والمرافق الحياتية؟ أين هي الفائدة على مستوى الفرد والوطن؟

---

(1)النهار 1976/1/8, ص 1 ـ 8.

ونكرر: أين فائدة اللبنانيين في ما يجري حالياً من أحداث في أزمة مطلع العام 2007؟

أين المصلحة في زرع فتيل الانفجار وهم يعرفون أن بارود التفتيت خصب في كوامن الجماهير الدفينة؟!

أين مصلحة اللبنانيين؟

- **حول عدم وجود مصلحة للبنانيين في كل ما فعلوه ببلدهم إلى حدّ الانتحار, قرأنا:**

علام كان كل ذلك القتل والتهجير والتخريب والدمار؟ أما كان بإمكان اللبنانيين أن يتفقوا على ما اتفقوا عليه قبل أن يتكبدوا كل تلك الضحايا والخسائر ومن دون أن يتحملوا كل تلك الآلام والعناء؟ (..) وتتفاقم حمى الاقتتال بين أبناء الشعب الواحد وتعنف موجات التدمير المتبادل وتقذف وطناً برمته, بمن فيه وما فيه, إلى شفير الهاوية؟[1].

ويضيف الحص في مكان آخر: فإذا بهذا البلد هدف لحكم مبرم قضى بأنه كيان يطوي في ثناياه عوامل التحطيم الذاتي, أو الانتحار.

كذلك, وفي مقابلة أجراها غسان تويني مع الرئيس صائب سلام في جنيف, توقف سلام طويلاً عند الحرب القذرة التي أكلت من عمرنا وعمر الوطن سبعة عشر عاماً, من غير أن يعرف أحد لماذا وقعت الواقعة, ومن جرَّ من, ومن ورَّط من, ولماذا كانت كل هذه المذابح وكل هذا الدمار وكل هذه الويلات[2].

تأثرية الجمهور:

يتحرك الجمهور ويسيّر غالباً بدافع من عمقه الشعوري الدفين. ولقد أثبتت التجارب الاجتماعية الحديثة أن أفعاله وسلوكيته إبان الأزمات تكون معظم الأحيان تحت تأثير النخاع الشوكي, العصبي بطبيعته وتركيبه, أكثر من كونها تحت تأثير العقل. فالفرد يعمل وينفعل غالباً تبعاً للإيحاءات والتأثيرات التي تمارس عليه. وهذه التأثيرات, وخاصة السياسية منها, تمارس بتخطيط مدبر ومرسوم وبتقنية علمية.

---

(1) سليم الحص (رئيس حكومة سابق في لبنان), عهد القرار والهوى, دار العلم للملايين, بيروت 1991, ص 37.
(2) النهار 93/7/2, ص 1.

نتيجة لذلك, يكون الجمهور بشرائحه البسيطة الدنيا, لعبة للمحركات الخارجية المخطَّطة التي يتعرض لها ويعكسها بالتالي تغييرات في الآراء والسلوك. إذن, هو أسير عناصر الدفع والتحريض والإغراء التي توجه إليه. ويكون الأسير ضعيفاً وخاضعاً عند انعدام الوعي الوطني الذي يمنحه التحصين, كاللقاح تماماً.

- **إن معاينة تربية جماهير المجتمع اللبناني منذ الاستقلال (1943) وحتى العام 1975, تثبت لنا أن التحصين واللقاح المذكورين سابقاً قد غابا تماماً. فلقد توافق الباحثون على أن انتماء الفرد اللبناني للطائفة وللمذهب وليس للوطن. كل ذلك سمح للأيدي الخارجية, وخاصة المسلحة, بالتدخل وكانت بداية الحرب في 13 نيسان 1975..**

والجماهير ذاتها في مطلع العام 2007, ما تزال تفتقد ذلك >التحصين ـ اللقاح<, وإعلام الفتنة قد يسمح للأيدي الخارجية بالتسلل لإضرام نار الصدامات الأهلية الداخلية.

يقول بوفيه (الفرد لا يفكر وحده كما يفكر ضمن الجمهور). ويقول لوبون: يجب التمييز بين الجمهور والشعب. فالروابط التي تجمع عناصر الشعب تجعله متجانساً, ولكنه قد يضيع في لجة الجمهور الذي تهيمن عليه سلوكية جماعية تجعل أفراده يفكرون ويفعلون أحياناً بطرق مغايرة لحالاتهم الفردية.

ومن هذا المنطلق, لا تستطيع الجماهير الغير محصَّنة أن تساهم في حل الأزمات الأهلية, بل تزيدها تعقيداً, لأن الفرد في لجة هذه الجماهير يصاب بتحول نفسي يدفعه لا إرادياً إلى السلبية في محاولة الهروب من المسؤولية وإلقاء تبعتها على الزعيم.

ينطبق هذا المضمون على كل الأزمات وصولاً إلى مطلع 2007.

أخلاقية الجمهور:

في إطار علم النفس التحليلي, أصابت المعارف العلمية ببواطن الدوافع البشرية وكوامنها الدفينة ميادين العلوم الإنسانية الأخرى, فأثارت التساؤل حول ماهية السلوكات الخلقيَّة لدى الإنسان, وبخاصة تلك المرتبطة بالأخلاق التلقيديَّة بعد أن اكتشف فرويد عالم اللاوعي

l'inconscient واستخلص قوانينه المتحكمة بجهاز الإنسان النفسي Appareil pyschique.

لقد قادت خبرة فرويد إلى استنتاج مفاده أن لا جدوى من إنكار ما للميول الأخلاقية من قوّة ومن أهميّة لدى الناس, إنها مكتنزات يتوارثها الإنسان في المجتمع وإن بنسب متفاوتة. وفق هذا المنظور, الأخلاق هي حصيلة التأثير الخارجي على الفرد, ذلك النازل به منذ طفولته الأولى.

تسعى الأنا بدافع الغرائز والميول الملحات إلى إشباعات ترغب فيها بمقدار ما تؤمّن لها اللذّة. تخضع هذه الميول وإشباعاتها لمبدأ يجهل شريعة الخير ـ الشر, وغالباً ما لا يتطابق معها بل ويناهضها.

فإذا كان إشباع العدوانية انشراحاً مريحاً فهو شرٌّ مضرٌّ وفق الشريعة الأخلاقية... يتدخّل إذ ذاك التأثير الخارجي القائم على القوانين والشرائع والموانع والضوابط والمعايير... ويفرض بموجبها ما يجب اعتباره خيراً أو شراً.

في الأصل, لم تكن الديانة والأخلاق والشعور الاجتماعي وهي عناصر جوهر الإنسان الأساسية, سوى وحدة واحدة غير منقسمة. يقول فرويد:

لعلم النفس التحليلي دور فريد, يؤهله لكشف نواقص وأضرار الأخلاق الثقافيّة الموروثة اجتماعياً عبر تاريخ الفرد والجماعة, وبالتالي فضح الخبث والرياء الناتج عنها وبها. إن كل امرىء يرى نفسه مضطراً إلى التصرف باستمرار, طبق تلك القواعد الشرائعية والأوامر الموجبة التي لا تمت إلى نوازعه الحميمة بصلة, يعيش نفسانياً فوق طاقته.

إن عناصر الشحن التي تمارس على الجمهور وينساق وراءها ويطيعها يمكن أن تكون متسترة بدوافع نبيلة أو لئيمة, بطولية أو العكس. ولكن هذه العناصر تصبح عند انعدام التوجيه ـ اللقاح قوية ومسيطرة وجارفة, وهذا هو التهور الجماهيري الجماعي. وحرب لبنان مليئة بالأمثلة العديدة التي لا تحصى عن هذا التهور. والدليل أن فعل الندامة تملك الأغلبية إن لم نقل الجميع.

إن تلك العناصر القادرة على الإيحاء والمتغيرة تبعاً للظروف السياسية والعسكرية, تجعل الجمهور يتمتع بحركية مستمرة. وكما التأثيرات تتغير بسرعة كذلك الحركية تصبح مستمرة وسريعة. فالجمهور قد ينتقل بسرعة من التمظهر النبيل والبطولي إلى آخر شرس دموي متوحش. يمكنه أن

يكون بسهولة فظاً وجلاداً, ويكون بسهولة أيضاً الشهيد والضحية. فمن هذا الجمهور ينسكب الدم الذي يصنع الدافع لخوض معركة النصر, فيكون الدم ـ الضحية, أو الدم ـ الشهيد في بعض الأحيان. ومن هذا الجمهور ينسكب دم الثأر والغضب, فيكون الدم ـ الجلاد والانتقام في بعض الأحيان. والدم في كل الحالات لا يجر سوى الدم... والآلام.

ولكن, الغياب الكامل للوعي الصحيح للجمهور يؤدي إلى انحلال رأيه العام, وجعله مائعاً متراقصاً. ونصل في النهاية إلى تفتت كامل في المعتقدات واستخفاف بكل ما لا يمس مباشرة مصالحه المباشرة وبالتالي الضيقة[1].

المبالغة والتبسيط في أحاسيس الجمهور:

إن المشاعر السيئة أو الحسنة, السلبية أو الإيجابية, المسالمة أو العنيفة التي تتمظهر عند الجمهور تمتلك بالضرورة ميزتين:

أ ـ التبسيط.

ب ـ المبالغة.

يكون هذا التبسيط, أو المبالغة, انعكاساً لما يريده المخطط أو المحرض من مناخ الاستغلال لمشاعر الولاء التي يكنها الفرد لجماعته التي ينتمي إليها.

فعند حصول حدثٍ ما ـ مثلاً عنف في بلد يعاني حرباً أو انقساماتٍ أهلية ـ يتهيأ المخطط من خلف كواليسه ويعمد إما إلى صب الماء على نار هذا الحدث وبالتالي تخمد ردة الفعل, وإما يعمد إلى زيادة النار اضطراماً, فتلتهب ردة الفعل الجماهيرية (أعمال عنف, الأخذ بالثأر, المطالبة بإقالة المسؤول ومحاكمته...).

رصدنا أثناء حرب لبنان, أن الفرد ضمن لجة الجمهور اقترب من التحوّل كائناً بدائياً: لم يتمكن من فهم الفوارق وتبصر الخيوط البسيطة وتمييز الألوان الوطنية السياسية, فقد كان يرى الأشياء

---

(1) يؤدي ذلك إلى ظهور حالة التسهيل الاجتماعي لارتكاب الجرائم بدءاً من جريمة الفساد وصولاً إلى جرائم الحرب.

والأمور بعمومياتها وخطوطها العريضة وكتلها الضبابية, ولم يكترث لمعرفة التغيرات الدقيقة والتحولات وأسبابها وشروطها[1].

وبالإضافة إلى رغبة المخطط والمحرض في المبالغة في ردات الفعل فإن ذلك كان يحصل بسهولة وبصورة ثابتة بفعل الوجود الطبيعي والانتشار السريع لرغبة تبني الحدث أو المناخ الناتج عنه عند كل فرد. ويتأثر هذا المظهر بعاملين: الإيحاء والعدوى. الإيحاء الذي يخاطب المخيلة, والعدوى التي تنقل هذا الإيحاء بسرعة من فرد إلى آخر ومن مجموعة إلى أخرى. فكما الخوف معد والإشاعة معدية, كذلك المبالغة في ردات الفعل عند الجمهور معدية.

تجلى الميل الطبيعي عند كل فرد شارك في حرب السنتين إلى الإدعاء بأنه هو الذي صنع هذا الحدث المعين وهجم واقتحم وحرر المنطقة والطائفة والعشيرة والحي والزواريب من براثن الانعزال والامبريالية. وأشداق الغرباء واليسار الدولي؟.

حذار أن يؤدي نزاع مطلع العام 2007 إلى توالد هذه الظاهرة عند الجماهير المشحونة, ولكن عناوين الهجوم والاقتحام والتحرير مختلفة.

التطرف:

عندما تعمد الجماهير إلى المبالغة فإنها تحاول لا واعيةً حماية نفسها من الشك. فالجماهير تنفعل وتتوجه مباشرة إلى الحد الأقصى والتطرف. فالشك بمظهر معين قد يتحول عند الجماهير إلى تأكيد غير قابل للنقاش. وبالعودة إلى مثل الفرد المنعزل: إن عدم ارتياحه إلى مظهر معين أو إلى زعيم معين يبقى ضمن إطار تفكير منطقي وإحساسٍ موضوعي محدد, لكن عدم الارتياح هذا قد يصبح كرهاً وحقداً ورغبةً في الانتقام عند الجمهور.

---

(1) ينشأ لدى الناس عادة حس الولاء تجاه جماعاتهم والإحساس بالافتخار بها. وسواء أكانت هذه المشاعر مبررة أم لا, فإن أعضاء الجماعة يتأثرون بها. ويوحِّد الولاء للجماعة الأعضاء في حالات معينة أهمها الأزمات أو الحرب الأهلية. وإن الكثير من الصراع الذي نلاحظه بين شلل الأحياء, والجماعات الدينية والأحزاب الطائفية يقوم على المشاعر المبالغ فيها بالافتخار بالجماعة.

فالجماهير في لبنان مالت بطبيعتها إلى التطرف وخاصة أنها لم تكن واعية قبل تسلمها البنادق, وأصبح التطرف مسلحاً وغابت لغة العقل في أحداث معينة يمكن اعتبارها مفاصل الأزمة ومحطاتها الهامة وبدايات لمراحل جديدة من مسلسل الحرب على أرضه والتي خاضتها تلك الجماهير.

حذار تكرار هذه التجربة القاسية هذه في بدايات العام 2007؟

إذن تكون المشاعر العنفية هادرة ودموية ومبالغ فيها عند الجماهير المتنافرة, خاصة تلك التي لم تخضع لتربية وطنية واحدة نتيجة التفكك في بنيتها ضمن الوطن الواحد. ويلعب عنصر انتفاء المسؤولية دوراً في المبالغة هذه. فالإفلاتُ من القصاص يكون مؤكداً لدى أفراد الجمهور الغفير, حيث يتكون لديه شعور الواثق من سلطته الآنية دون منازع بسبب كتلته الضخمة الطاغية.

ولقد تجلت هذه الظاهرة أثناء الحرب الأهلية اللبنانية, حيث تحرر الساذج والجاهل والحاسد والأرعن كلٌ من إحساسه بعجزه وعدم كفايته وأهليته وامتلك قوة خشنة قاسية وأحياناً متوحشة, عابرة لكنها جبارة بفعل امتلاكها المشروعية بنظر الجمهور المشارك. ولقد حفلت هذه الحرب بمسؤولين أصحاب عقدٍ نفسية أفرزتهم الجماهير المتدافعة, فقامت على أكتافهم المفاصل الأكثر دموية في مسار هذه الحرب.

حذار تكرار هذه الظاهرة أيضاً في أحداث العام 2007؟

الشك والبرهان عند الجمهور:

إن مقاربة الحدث وشهوده تضيع في دوامة الغموض والالتباس والتشويه أحياناً. فالحدث المشكوك بتفاصيله هو ذلك الذي لوحظ من قبل عدد كبير من الأشخاص. ولن نكون متشائمين إذا قلنا أن الحقيقة الواقعية للحدث الذي شوهد من قبل آلاف الشهود مختلفة كثيراً عن النصوص المعتمدة لرواية هؤلاء الآلاف لذلك الحدث[1].

(1) لعبت الصحافة الصفراء دوراً أساسياً في تشويه الأحداث وتفاصيلها وإضفاء اللون التحريضي عليها أثناء الحرب الأهلية, وقد حمّلها الرئيس الراحل أنور السادات قسطاً كبيراً من المسؤولية في تأجيج الصراع.

من ناحية أخرى, إن مضمون كتب التاريخ, وخاصة القديم منه, هو غالباً من تراكم الذاكرات ومن نسج الخيال. إنها سرد عنجهي لمآثر الأبطال. فالأشخاص الأسطوريون الذين لعبوا أدواراً مهمة في حياة الإنسانية, لا نعرف طبيعة حياتهم الحقيقية, لأن الجماهير قديماً كانت تتأثر بشدّة لدرجة أنها كانت تصنع من قادتها أبطالاً أسطوريين.

لا يمكن الجزم أن الجمهور المعبأ والمحتقن لا يتأثر بالبرهان والمنطق والاستدلال. ولكن, من خلال تجارب أجريت سابقاً وأمكن رصدها خلال الأزمة اللبنانية, نقول أنه يحدث داخل كتلة الجمهور صراع بين الحجج التي تبناها سابقاً وبين رجال الدعاية الذين يتسلطون عليه ويتدخلون في الظرف المناسب, فينتفي المجال للمقارنة والتشابه بين البرهان المؤثر والحجج المطروحة والتخيُّلات الشعورية, وتطفو الأخيرة طبعاً على السطح المترجرج, ويكون الشك طيفاً يلوح خَجِلاً, ثم يعتمل في نفس الجمهور المتأججة بالمشاعر.

إذن, ينصهر أفراد الجمهور بالتصورات الجماعية واستحضار الأحاسيس المشتركة والذاكرة الجماعية "Memoire collective" واستدعاء مجموع الإرث الاجتماعي. النفساني (الدين, المعتقد, العادات, الأساطير, الثقافة, التاريخ...) وهذا الترابط يكون جامداً لا يفككه شك وليس بحاجة إلى دعمه بالبرهان والاستدلال.

تطبيقاً لذلك, عمد الخطباء وصانعو الدعايات خلال الحرب اللبنانية إلى استحضار الصورة أو الفكرة التي تسحر جمهورهم وتهيج مخيلته وتنسجم مع تموجات عواطفه وتزيد من الدفع والإثارة. إنه مبدأ التماوج المتناغم. فنجاح الخطيب السياسي في لبنان ارتبط إلى حد ما بمدى قدرته على معرفة اختيار الجمل والتعابير التي تستحضر هذه الصورة أو تلك التصورات والتخيلات. لقد كنت أقيس شخصياً خطابات زعمائنا بتلك الصور المحركة للمشاعر الأولية الدفينة وليس بالحجج المنطقية التي غالباً ما كانت تذهب صرخة في واد.

- **إن صراع الطوائف في الحروب اللبنانية عامةً وفي حرب السنتين تحديداً يدخل في إطار معرفة كيفية تحريك الأوتار المناسبة وفي الأوقات الملائمة. فحينما كان العقلاء من اللبنانيين يحاولون الاقتراب من بعضهم وتحقيق الإلتحام بين طوائفهم, كان صانعو الدعايات يتدخلون في اللحظة المناسبة ويثيرون الأحقاد والغرائز لدى الشرائح السفلى من الجماهير المتماوجة, إضافة إلى افتعال أعمال عنف تضرم**

النار وتؤججها.

مثلاً, مرَّ لبنان يوم الأحد بتاريخ 5 شباط 2006 بتجربة قاسية خلال تظاهرة شارك فيها الآلاف في بيروت استنكاراً للتعرض لشخص النبي الأكرم محمد (صلعم) من خلال نشر صور كاريكاتورية مهينة في صحيفة دانمركية. خلال توجه المظاهرة الاحتجاجية إلى مبنى السفارة الدانمركية في الأشرفية, ذات الأغلبية السكانية المسيحية والرمزية السياسية المسيحية أيضاً إبان الأزمة اللبنانية, عمد عدد كبير من المندسين فيها إلى ارتكاب أعمال شغب واعتداء على الأملاك الخاصة والكنائس وإهانة المواطنين مما أدَّى إلى انفلات التظاهرة الاجتماعية السلمية عن هدفها وبروز خطر تداعيات وانعكاسات سلبية أنذرت بتفجير فتنة طائفية تهدد أمن الوطن ووحدته. لكن مواقف الزعماء, دينيين وسياسيين, اكتسبت أهمية حاسمة لجهة مسارعتهم إلى تطويق محاولة الفتنة التي شكلها انفجار الشغب الغوغائي مع انفلات موجة التحطيم والحرق تولاها مئات من المتظاهرين وبلغت ذروة خطورتها مع التعرض للكنيستين في الأشرفية (...). وإن خطة زعزعة استقرار لبنان لن تمر والكل يعلمون أنهم يحاولون الإيقاع بالبلاد والعبث بالأمن والسلم الأهلي[1].

ما يهمنا من هذا المثل وبغض النظر عن توظيفاته السياسية في حينه مضمونه العلمي المنطبق على الوارد آنفاً في أن صانعي الدعايات السياسية يتدخلون في اللحظة المناسبة ويثيرون الأحقاد لدى الشرائح السفلى من الجماهير المتماوجة, إضافة إلى افتعال أعمال عنف تضرم النار وتؤججها.

لذلك, وبعد رصد مضمون الخطاب السياسي . الإعلامي التحريضي مطلع العام 2007, وبعد أن نعرف أن علم النفس الاجتماعي يثبت أن الفرد لا يكرر خطأه عادةً لكن الجماهير . وبعد تحريض صادم . تكرر أخطاءها السابقة, بعد كل ذلك نتساءل: ترى ماذا يخبىء لنا العام 2007؟

سلوكية وتخيلات ومعتقدات الجمهور:

عندما يكون لدى الجمهور, بشكل عام, سلوك بدائي مبني على أفكار أولية بدائية, وبالتالي طفولية, فمن يحاول إقناع وإقحام هذا الجمهور بالمنطق فقط, يكتشف أكيداً الفائدة المحدودة لهذا النمط من التدليل التغييري. ويتجلى هذا الواقع بصورة واضحة في المسائل المرتبطة بالدين والعقيدة.

---

(1)النهار6 شباط 2006 ص 12.

وإننا نكتشف عجز الدليل والحجة والبرهان, ومحدودية قدرة هذه العوامل عند الصراع مع الأحاسيس ومحاولة التعاطي مع جمهور معين. فلنتذكر دائماً كم كانت الجماهير عنيدة في الزمن الغابر عندما أقدمت الحجج المنطقية على محاربة الشعور الديني المتعارض مع أبسط منطق علمي[1]. وليس هناك اختلاف كبير برأيي بين جماهير القرون القريبة وجماهير دول العالم النامي.

فأين المنطق في الصور التعبيرية التعصبية المهيجة التي امتلأت بها حملات حرب السنتين في لبنان؟ أحدهم قال: لن ترتاح عظام جدي في قبره حتى نأخذ بالثأر ونرويها بدماء المارقين... وجده هذا توفي منذ عشرات السنين. والمارقون هم جمهور آخر ساذج ذنبه فقط أنه ينتمي إلى طائفة الخصم.

هل يعني ذلك بأنه يجب نعي دور الدليل والحجة والبرهان عند التفكير بقيادة جمهور؟ لا يمكن تعميم ذلك, ولكن يمكن الجزم بأن عوامل البرهان يجب أن تتزواج مع إثارة الأحاسيس والذاكرة الجماعية ونبش الكوامن الإنسانية وتحريك العمق الشعوري وخلق الوهم عند الإقدام على خطوة قيادة الجمهور. فالفكر وحده لا يقود الشعب ويحكمه, فلا مناص من استخدام الطاقة الشعورية الدفينة.

لاحظت من خلال تجربتي أثناء الأزمة اللبنانية أن حركة الجماهير اللبنانية المتعددة ـ سواء في حرب الطوائف خلال حرب السنتين أم حرب المذاهب في العامين 85 ـ 86 أم الصراعات السياسية خلال ست عشرة سنة من عمر الأزمة ـ نتجت عن نبش العمق الشعوري النفساني الدفين عند كل الأطراف المتصارعة, وتحريكه بمفردات تعصبية غرائزية محورها عقدتي الغبن والخوف وتتغذى من الإنتماء الطائفي ـ المذهبي ـ العشائري, مما أدى إلى إعطاء الأزمة أبعاداً عنيفة قاسية غير متوقعة تجلَّت في عمليات خطف وذبح وتعذيب ومجازر.

حذار من نبش العمق الشعوري النفساني الدفين عند أطراف نزاع مطلع العام 2007؟

---

(1) (غاليله) Galile (1564 ـ 1642) فلكي إيطالي أدين عام 1633 بالهرطقة لأنه قال إن الأرض ليست محور الكون وبأنها تدور حول الشمس وحول ذاتها مخالفاً بذلك التعاليم الكنسية الدينية. دافع غاليله عن نفسه معتبراً أن دراسة العالم تزيد من فهم الدين, لكن سلطات الكنيسة أجبرته على الارتداد عن معتقداته ولعنها. وتقول الروايات أنه فعل ذلك وهو عجوز مريض, ولكن في نهاية المحاكمة همس بعبارته الشهيرة ومع ذلك, فإنها تدور. وبعد 359 سنة أعلن البابا يوحنا بولوس الثاني (1992) رسمياً أن الكنيسة الكاثوليكية أخطأت في إدانتها عالم الفلك نتيجة سوء تفاهم مأساوي بينه وبين قضاة محاكم التفتيش.

تخيل الجمهور, تصوراته ومعتقداته:

إن مسألة التخيّل والتصورات أو المعتقدات التخيلية عند الجمهور قادرة على التأثر والتأثير بعمق خاصة في الأفراد الذين غاب عن ذهنهم دور الحجة والمنطق وجوهر الاستدلال. فالتصور أو التخيل الذي التصق بذهن جمهور معين حول شخصية معينة أو حدث معين له حيوية وحركية الأشياء الحقيقية الواقعية.

إن حالة الجمهور التعصبية, تشبه حالة المسرنم, الذي تنبثق في ذهنه وتظهر الصور الأكثر حدة وكثافة, ونتيجة لعدم قدرة الجمهور المؤكَّدة والدائمة على التفكير التحليلي لا يمكنه تمييز أو معرفة الحدث المستبعد التوهمي البعيد عن التصديق. ومن خلال تجربتنا اللبنانية لاحظنا أن الأمور التوهمية البعيدة عن التصديق كانت عموماً الأكثر بياناً وتأثيراً وكان لها قوة التدليل الدامغ. فدائماً, كانت الأمور التي تتمتع بحدود مدهشة, هي الأمور التي تلفت نظر الجمهور وتؤثر عليه.

إن الفرد داخل الجمهور يرى نفسه دائماً مضطراً إلى الإذعان باستمرار إلى مفروضات معيارية أكره عليها من الخارج, مفروضات لا تمت إلى مصلحته العامة أو الخاصة أو حتى إلى نوازعه الحميمية بصلة, إنه يعيش نفسانياً فوق طاقته.

حركية التخيل والإثارة:

كيف يمكن أن تتم عملية تحريك وإثارة ودغدغة مخيلة الجمهور وقدرته على التصور؟ الثابت والأكيد أنه خلال حرب السنتين وبعض مفاصل الأزمة في لبنان لم يكن هناك من حاجة إلى بيان بليغ وأدلة وبراهين دامغة لتحريك جماهير الشعب, بل كان عرض جثة أو جثث تنتمي إلى جمهور معين كافٍ لحصول ذلك دون الإلحاح على معرفة القاتل.

إذن, إن كل ما يضرب مخيلة الجمهور كالبرق, هو ما يُستحضر ويتمثل بشكل صورة أخاذة واضحة محاطة بتفاصيل جاذبة صادمة وتتناول موضوعاً أو سلوكاً مدهشاً لافتاً: جريمة كبرى, خطر طائفي كبير, نصر كبير, مجد عظيم... الخ. فمئة جريمة صغيرة ليس لها تأثير جريمة وحشية كبيرة تثير في المخيلة الخوف من المجهول بغض النظر عن نتائج هذه الجريمة. فموت مئة شخص في اشتباكٍ

في جنوب أفريقيا لا يحرك ويثير تصورات الجمهور وتخيلاته العميقة مثل قتل فتاة على خلفية سياسية . طائفية بعد اغتصابها أمام الناس في حافلة الترام... والصورة تضج على صفحات الجرائد ومخيلات الناس. فكيف إذا كانت الجريمة الوحشية في مسرح الأزمة الأهلية؟

فالأحداث إذن, وطريقة إبرازها وعرض صورها بكثافة واستمرارية, تصدم المخيلة وتخلق عند الجمهور صورة تخيلية أخاذة تستبدُّ بتفكيره وتدفعه مكرهاً وراضياً في آنٍ معاً إلى التطرف.

ما هي العوامل المحددة؟

أجمع علماء النفس والاجتماع على أن عمق المعتقدات والآراء لديها يشتمل على عوامل أهمها: العرق, العادات, التقاليد, التربية والتجارب التي مرَّت بها, أي التاريخ القريب والبعيد.. ولهذه العوامل دور رئيسي في عملية الإيحاء والتخيل والتصور لدى جماهير الشعوب.

إن كل شعب له خصائصه وثقافته التربوية ومعتقداته وفنونه, وبكلمة واحدة حضارته. وتصبح عناصر هذه الحضارة التعبير الخارجي عن نفسه وخلقه وضميره بل وروحه إذا جاز التعبير. وأثبت هؤلاء العلماء أن سلطة وقوة أي عرق تكمن في أن أيا من خصائص شعب لا تنتقل كاملة سليمة إلى شعب آخر دون الخضوع والتعرض لتحولات عميقة جداً خلال عقود بل قرونٍ طويلة من الزمن.

فبالرغم من المظاهر الخارجية والسطحية الواهمة, فلا اللغة ولا الدين ولا الفنون ولا أي عنصر من عناصر الحضارة يمكن أن ينتقل كاملاً سليماً من شعب إلى آخر. والشعوب التي اعتقدت عكس ذلك اكتسبت شخصية مترجرجة وفقدت خصائص حقيقتها. وتفيد الأبحاث أن العادات والتقاليد هي أفكار وحاجات ومشاعر الماضي, وأن أي شعب هو جسم خلقه الماضي لا يمكن تغييره أو تحويله إلا بتراكمات وراثية بطيئة. ولا يمكن التخيل إطلاقاً أنه يمكن قطع مجتمع عن ماضيه وصنعه مجدداً تحت أضواء العقل فقط. تلك كانت أوهام بعض رجالات الدولة والتاريخ الذين فشلوا وبقيت أوهاماً.

فقادة الشعب في الحقيقة هي عاداته وتقاليده ومعتقداته. ولا تتغير بسهولة إلا المظاهر والأشكال الخارجية. ومن الأكيد أنه دون عادات وتقاليد وثقافة تربوية واحدة . أي دون نفس وخلق

وضمير . لا إمكانية لوجود أية حضارة موحّدة.

أعتقد الشعب اللبناني بين الأربعينات والسبعينات أنه ارتقى من مصاف الدول النامية عندما تكلم اللغات الأجنبية وركب السيارات الضخمة واستعمل الآلات الحديثة وزادت أرصدته في البنوك المترفة بالسرية المصرفية وفتح أبوابه للحرية وللأجانب واستثماراتهم... جاءت حرب السنتين والأزمات التي تلتها لتبيّن مدى إهماله التربية الوطنية وثقافة العيش المشترك الحقيقي وأطلقت العنان للمشاعر البدائية العدائية الدفينة.

وفي مطلع العام 2007, حذار إطلاق العنان لتلك المشاعر الدفينة مجدداً! لأن التربية الوطنية الواحدة ما تزال مهملة

علاقة رأي الجمهور بالمعتقدات:

يقول من شارك في مفاوضات اتفاق 17 أيار 1983 إن إسرائيل طلبت منا أن نتوقف عن استخدام الآيات الواردة في القرآن والتي تتعرض لشعب إسرائيل[1]. إنها إشارة جوهرية إلى عمق علاقة رأي الجمهور بالمعتقدات[2].

إن الآراء المتعارضة مع معتقدات الأصل أو النسب أو السلالة أو الدين... لا تدوم في الغالب إلا لمدة محدودة وهي صائرة إلى زوال. والنهر سيعود إلى مجراه لأن محاولة تحويله تتم بقناة هزيلة. فالآراء التي لا ترتبط بوشائج المعتقد تصبح ورقة هزيلة في مهب ريح الصدف والأقدار والحملات المعادية المدروسة. إنها تتشابه مع حال العدوى, محدودة في الزمان والمكان, تشتعل وتخبو

---

(1) النهار 1991/11/1, ص 2.

(2) كان للبابليين والأشوريين آلهتهم الخاصة, ولكل إله دور وقصة وعبرة. وقد فاق عدد الآلهة الثلاثة آلاف نذكر مشاهيرهم الذين سيطروا على المعتقد وهيمنوا على الشعبين البابلي والأشوري مئات السنين. وبمناسبة عيد زوجة إلههم عشتروت, كانت الاحتفالات تتميز بالغرابة... فقدكان بعض الرجال يبترون أعضاءهم التناسلية بشكل طوعي في إطار حماسي جماهيري فائق... نقلاً عن العقيد بسام سعد, في الدعاية السياسية, بيروت 1992, ص 29.

بسرعة, كتل من رمل خلقتها ريح على شاطىء بحر.

لقد ظن اللبنانيون أن الأحزاب العلمانية التي انتسبوا إليها منذ الخمسينات ستنجح في تحصين الوحدة الوطنية بين الطوائف المتعددة. ولكن, نتيجة لغياب الثقافة التربوية الوطنية الحضارية الموحّدة للفرد ومعتقده, انهارت هذه الأحزاب عند الهزات الطائفية (75 ـ 76, 84 ـ 85), وأخذ عناصرها ينتسبون إلى الحركات والأحزاب ذات الهوية الطائفية.

إذن, لا تمتلك تلك الآراء ثبوتية المعتقدات المتجذرة, وهذا أمر بديهي. إنها غالباً ما تكون متحركة بحيث يبدو من السهولة بمكان التأثير عليها وتغيير اتجاهها.

وبهدف التأثير على الرأي, هناك طريقتان رئيسيتان: الحجة والتجربة. إن تأثير الحجة على الرأي المرتبط بالمعتقد, وخاصة المعتقد الديني, هو تأثير شبه معدوم (أثبتت الحرب في لبنان ذلك) ويكون تأثيرها ضعيفاً عند تصديها للآراء العادية باستثناء تلك المتعلقة بالنظريات والقواعد العلمية البحتة. وينادي كل الخبراء بعدم كفاءة الحجة لإضاءة زوايا الآراء والأحكام المرصودة في أغلبية الأنظمة السياسية في دول العالم الثالث, ويتجلى هذا المعنى صارخاً خلال الانتخابات التمثيلية في تلك الدول[1].

ماذا يبقى إذن للتأثير على الآراء إذا كانت الحجة غير كافية, وكيف يمكن تبيان الحقيقة الجلية؟

يجزم الخبراء ونجزم نحن من خلال دراستنا للأزمات الأهلية المتأجّجة بأحدث تقنيات صناعة الرأي والدعاية, أنه لا يوجد للتأثير سوى سبيل فعال تحدده كلمة واحدة تتصف بالشمولية وهي: التجربة. فكل التقنيات التي تمارس على علاقة الجمهور بالآراء والمعتقدات تدخل في إطار واسع يدعى التجربة. إنها تقنيات علمية, إذن هي وليدة التجربة. والويل للشعوب التي لا تقرأ التاريخ والتي لا تقرأ التجارب, فتقع فريسة سهلة في براثن التفتيت والتقسيم والتجزئة. وبالتجربة فقط يمكن كسب

(1) يخوض الزعماء الانتخابات التمثيلية في تلك الدول وفي زنود أفواههم الوسيلة الأمضى, وهي قصف العقول عبر تحريك الكوامن الشعورية المرتبطة بالمعتقدات.. وحقل المعرفة هو علم نفس الجماهير..

الجماهير المتفككة بعد الحرب الأهلية اللبنانية. هي التجربة التي مرَّت بها المجتمعات اللبنانية والتي ربما قد صنعت أو تصنع وحدانية الولاء والإنتماء للبنان العربي الواحد بعد زلزال استشهاد الرئيس رفيق الحريري.

نختم ونقول: الأسياد غير المنظورين الذي يسيطرون على أنفسنا يفلتون من مجهود التغيير ولا ينصاعون لهذا التغيير إلا في وعي ثقافي تربوي موحَّد وموحِّد والاحتكاك البطيء مع عقود السنين. هل سنوات عمر أزمة لبنان كافية لإصلاح هذه الأسياد؟ نعم, فقد تغير بعضها بعد حروب لبنان المتلاحقة ولكن ليس كلها. ولا بدَّ من صحوة ثقافية ـ تربوية تجعل التغيير مؤكداً باتجاه ثبات الولاء والانتماء لوطنٍ واحد.

إن حروب الانتماء إلى محاور سياسية أو طائفية أو مذهبية هي الحروب الحديثة. إنها تجتاح معظم الدول النامية, وانهيار الشيوعية وأزمات الخليج العربي وأفغانستان والعراق ومقولة الشرق الأوسط الكبير أو الإسلامي الكبير وتوازن الرعب النووي وحروب الإرهاب وموجات الديمقراطية المصطنعة والطبيعية.. كلها نماذج حية من تلك الحروب.

ولبنان كان المقدمة في حروبه المتنقلة, كان التجربة الصغرى, كان أنبوب الاختبار في حرب السنتين (1975 ـ 1976) وما تلاها.. فقد كان في لبنان جماهير ـ عينات, وأحياناً أشباه جماهير.

وعند استعراض وقائع 23 ـ 2007/1/25 التي ما تزال ماثلة أمامنا, ولا حاجة لذكرها, يبرز السؤال: **هل ستعود جماهيرنا أنابيب اختبار في تجارب أزمة 2007.؟**

نقول ذلك لأن النظرة الطائفية أو المذهبية إلى الوطن تدفع إلى نشوء تعدديات مجتمعية ـ سياسية. وعندما تتدخل الدعايات الهدامة فإنها تخلق في العمق الجماهيري إيديولوجيات تعصبية, وقد تدمر هذه الإيديولوجيات عنصر المواطنية عند الجمهور, وبالتالي يصبح ولاءه للوطن مزعزعاً. وهذا الأمر قد ينعكس سلوكاً يؤدي إلى صدامات أهلية في الشوارع, وبالتالي اندلاع أزمة أهلية حادة تنذر بأن تصبح نزاعاً مسلحاً داخلياً. وللأسف, تبرز القناعة ولكن بعد فوات الأوان ـ بعد تدمير ذاتي وهستيريا جماعية ـ بأن الحوار هو وسيلة الحل واليقظة, الحوار في مناخٍ إعلامي يرتكز على التنوير

والتوعية دون تشويه أو تحريض غريزي, الإعلام الذي يحترم حرية الرأي وتعدديته ويخدم التوجهات الوفاقية نحو وحدة البلاد وقيام سيادة الدولة صاحبة السلطة الموحدة.

حتى لا تعود جماهير لبنان أنابيب اختبار..إلى الحوار فوراً.. ودون إبطاء.